بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد اللّه ـ وجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية. وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية. والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية وأمها امرأة من بني أمية وقد تزوج العالية إسحاق بن سليمان بن علي.

٣ ـ المهدي

هو محمد المهدي بن المنصور، وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنّى أم موسى. ولد (سنة ١٢٦) بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات. ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات، ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه (سنة ١٤١) وسنّه (١٥ سنة) قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الري حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمٰن عامل المنصور على خراسان. وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان ثم انصرف عائداً من خراسان (سنة ١٤٤) فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها ـ وفي هذه السنة بنى المهدي بريطة بنت أبي العباس السفاح وفي (سنة ١٤٧) ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى ثم عاد إلى الري فأقام إلى (سنة ١٥١) وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجنده الرصافة وهي الجانب الشرقي من بغداد وولاه الحج (سنة ١٥٣) وفي (سنة ١٥٥) أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد ولم يزل يستعين به في الأعمال حتى توفي في التاريخ الذي تقدم ذكره (٦ من ذي الحجة ١٥٨ ـ ٧ أكتوبر سنة ٧٧٥).

بيعة المهدي:

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدي على بني هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور في حجه ووجه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي ﷺ وبردته التي يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة. وفي ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام ومكث في خلافته إلى أن توفي ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم (سنة ١٦٩ ـ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بماسبذان فتكون مدته عشر سنين وشهراً ونصفاً.

وكان يعاصره في بلاد الأندلس عبد الرحمٰن الأول مجدد الدولة الأموية في المغرب. ويعاصره في فرنسا شارلمان. ويعاصره في مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه إيريني تدبر أمره.

الحال في عهد المهدي:

كانت خلافة المهدي مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور، فقد

كان المنصور يؤسس ملكاً له خصوم فكان يكتفي بالريبة والظنة فيعاقب بهما، وفي مثل ذلك كثيراً ما يؤخذ البريء بالمذنب والمطيع بالعاصي، فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت، وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لا يحتاجون في الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم، فكانوا يعرضون عليه كل يوم، ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه في كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه.

في أول ولايته أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أو حق فالذين أطلقهم من كان جرمهم سياسياً. أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فإنهم ظلوا في حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داوود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي.

ومما أجراه من الإصلاح أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان السفاح بناها من القادسية إلى زبالة وأمر بالزيادة في قصور السفاح وترك منازل المنصور التي بناها على حالها. وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وهي حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وجعل لذلك عاملاً خاصاً يقوم به وأمر أن يجري على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذومون إلى المشي في الطرق وسؤال الناس فيكونون سبباً في انتشار المرض، وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعاً إلا من كان له أهل يسألون عنه.

وأقام البريد بين مدينة رسول الله ﷺ ومكة واليمن بغالاً وإبلاً ولم يقم هناك بريد قبل ذلك.

ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دوراً كثيرة مما يحيط به ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوي وكتابة اسمه مكانه وقديماً شغف الملوك بهذه الإغارات التي تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشاً على الآثار فإن الخلف منهم كان إذا رأى للسلف أثراً باقياً يستحق به المدح والثناء، فسرعان ما يأمر بإزالة اسم الباني ويضع اسمه كما حكي ذلك في الآثار المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلاً عن الملوك ولكن هكذا كان.

وكان المهدي يجلس للمظالم وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من

القصص أولاً فأولاً فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض.

وكان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائماً يعاقبهم بالقتل، ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفي من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم والذي أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراساني كان من إحدى قرى مرو، وكان يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشراً كثيراً وصار إلى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذٍ على خراسان ثم أفرد المهدي لمحاربته سعيداً الحبشي وضم إليه القواد، فاستعد المقنع للحصار في قلعة كبش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سماً وأسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعاً ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه.

الوزارة:

كان مظهر الوزارة في عهد المهدي أوضح منه في عهد أبيه المنصور لما كان من ركون المهدي إلى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فإنه جمع له حاصل المكة ورتب الديوان وقرر القواعد، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدي، فكان غالباً على أموره لا يعصي له قولاً، وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته، فلما مات المنصور وولي المهدي فوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين وكان مقدماً في صناعته وله ترتيبات في الدولة منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة، وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم، فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتاباً في الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنف كتاباً في الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتباً في الخراج سيأتي ذكرها.

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور إذا شكاه أحد بشكوى، فلما توفي المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدي بمكة عاد إلى دار السلام فرأى أن يقابل أولاً أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدي فحضر إليه واستأذن عليه فلم يأذن له إلا بعد صلاة العشاء، ولما دخل عليه كان متكئاً فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكئ، فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل في أمر بيعة المهدي فذهب الربيع يبتدئ بذكره فقال له: قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبي عبيد الله وقال لابنه الفضل: والله الذي لا إله إلا هو لأخلعن جاهي ولأنفقن مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله. كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء، فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التي كانت في تلك الأزمنة سلماً

للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حياته مطعناً في أبـي عبيد اللّه، لأنه كان بعيداً عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم.

كان لأبـي عبيد اللّه ابن متهم في دينه وقد أسلفنا ما كان المهدي يكره من الزندقة فرأى الربيع أن ذلك خير وسيلة للإفساد بين الخليفة ووزيره فما زال يحتال في ذلك حتى اتهم المهدي ابن أبـي عبيد اللّه فأمر بإحضاره وقال: يا محمد اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن فقال لأبـي عبيد اللّه: يا معاوية ألم تخبرني أن ابنك جامع للقرآن فقال: بلى يا أمير المؤمنين ولكنه فارقني منذ سنين، وفي هذه المدة نسي القرآن فقال: (قم فتقرب إلى اللّه بدمه) فذهب ليقوم فوقع فقال العباس بن محمد: يا أمير المؤمنين إن شئت أن تعفي الشيخ ففعل وأمر المهدي بابنه فضرب عنقه.

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدي من أبـي عبيد اللّه، لأنه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ما أراد واشتفى وزاد. وتلك حال الأمراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيداً لكل قول فلا يزال أهل الأهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التي من السهل على المفسدين توجيهها لأنهم لا ينتظرون تحقيقاً وكانت وفاة أبـي عبيد اللّه معزولاً (سنة ١٧٠) وكان عزله (سنة ١٦١).

استوزر المهدي بعده أباه عبد اللّه يعقوب بن داوود بن طهمان مولى بن سليم، كان أبوه قديماً كاتباً لنصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فإذا ليس لهم عند بني العباس منزلةً فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها، فكان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ومع إبراهيم بن عبد اللّه أحياناً في طلب البيعة لمحمد بن عبد اللّه، فلما ظهر محمد وإبراهيم كان علي بن داوود كاتباً لإبراهيم وكان يعقوب من الخارجين مع إبراهيم، فلما قتل توارى علي ويعقوب وإخواتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ علياً ويعقوب وحبـسهما في المطبق أيام حياته، فلما مات المنصور وبويع المهدي منّ عليهما فيمن منّ عليه، وكان معهما في المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة كان المهدي يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد لملكه فكان يطلب رجلاً له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل على يعقوب، فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلاً كاملاً فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب أن يدخل بينه وبينه، وكان الناس في ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدي إنما كانت للسعاية بآل علي وكان يعقوب يتبرأ من ذلك.

قرب المهدي يعقوب بن داوود إليه وولاه وزارته بعد أبـي عبد اللّه فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه.

ومن علو منزلته أنه أمره المهدي بتوجيه أمنائه في جميع الآفاق فكان لا ينفذ المهدي كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك.

كان ذلك العلو داعياً لأن حسده موالي المهدي فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال في ذلك بشار بن برد:

بنـي أميـة هبـوا طـال نـومكـم إن الخليفـة يعقـوب بـن داوود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفـة اللّـه بيـن النـاي والعـود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لإسحاق بن الفضل وأنه يربض له الأمور، وأفهموا المهدي أن إسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب في يده وفي أيدي أصحابه وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعاً في يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لإسحاق بن الفضل، فملأ ذلك قلب المهدي وصادف أن طلب يعقوب من المهدي عقب ذلك ولاية مصر لإسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدي ثم دس إليه جارية من جواريه وهبها له تسمع ما يبدر منه ثم سلم إليه علوياً أمره بقتله فمنّ عليه يعقوت وأخرجه خفية وأخبر المهدي أنه قتله، وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوي إليه فأرسل من جاءه به من الطريق، ولما رآه يعقوب سقط في يده وأمر المهدي بإعادته إلى المطبق فحبس ولم يزل محبوساً حتى أخرجه الرشيد من سجنه. وأمر المهدي بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك (سنة ١٦٦) فكانت وزارته خمس سنوات.

وفي هذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزمة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك أنه لما جمعت له الدواوين فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولى كل ديوان رجلاً فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صبيح ولم يكن لبني أمية ديوان أزمة وفي (سنة ١٦٨) ولى المهدي علي بن يقطين ديوان زمام الأمة على عمر بن بزيع.

استوزر المهدي بعده الفيض بن أبـي صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى، فانتقلوا إلى بني العباس وأسلموا وتربّى الفيض في الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخياً مفضالاً متخرقاً في ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير البر والتيه واستمر الفيض وزيراً للمهدي

حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات في أول أيام الرشيد (سنة ١٧٣).

الأحوال الخارجية:

كان منظر الخلافة في داخل المملكة باهراً، وكان كذلك مظهرها في نظر الأمم الأخرى إلا أنه مما يؤسف سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمٰن الداخل فقد كان المنصور والمهدي يهتمان بأمره ويودان إزالة دولته، ولكن الشقة بين الرجلين بعيده، فلم يمكن واحد منهما أن يجرد له جيشاً يخترق صحارى إفريقية ويغزوه في بلاد الأندلس فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر وكان شارلمان في ذلك الوقت مهتماً بإعادة الدولة الرومانية الغربية التي امحت آثارها وقد فطن إلى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الأندلس إلى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذاً في الخلافة الإسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم في القسطنطينية وجد في ذلك حتى تمكن من إتمام هذه المواصلات في عهد الرشيد كما سيأتي.

أما العلاقات بين المهدي وبين ملك الروم فكانت سيئة فلم تكن الإغارات من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الإغارات من ملك الروم وكانت الحرب براً وبحراً.

وفي (سنة ١٦٣) احتفل المهدي بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرهم وخرج المهدي مع الجيش حتى أتى البردان فأقام به نحواً من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطي الجنود وأخرج صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات في عهد المهدي فتح الله عليهم فيها فتحاً كثيراً وأبلاهم في ذلك الوجه بلاءً جميلاً ففتحوا حصن سمالا بعد أن قاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك فنزلوا ووفى لهم هارون. ثم قفل بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بسمالا.

وفي (سنة ١٦٥) غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل في بلاد الروم وكان عدد جيشه (٩٥٧٩٣) رجلاً حمل لهم من العين (١٩٤٤٥٠) ديناراً ومن الورق (١٤١٤٨٠٠) درهم، ولم يزل الجيش سائراً حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية، وكان الذي يقوم بأمر الروم «إيريني» أم الملك نيابةً عن ابنها فجرت بينها وبين هارون مكاتبات في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق في طريقه، لأنه قد دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين فأجابته إلى ما سأل. والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها (٩٠٠٠٠) دينار تؤديها في نيسان من كل سنة وفي حزيران فقبل ذلك وأقامت له الأسواق في

منصرفه ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة إلى ثلاث سنوات وسلمت الأسارى. وقال مروان بن أبي حفصة في هذه الغزوة لهارون.

أطفت بقسطنطينية الروم سنداً إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا محرم (سنة ١٦٦)، وقدمت الروم بالجزية معه وتبلغ (٦٤٠٠٠) دينار رومية و (٢٥٠٠) دينار عربية و (٣٠٠٠٠) رطل مرعزي.

وفي رمضان (سنة ١٦٨) أي قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه إليهم علي بن سليمان بن علي وهو والي الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال في سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا. والنتيجة أن مدة المهدي كان أكثرها حرباً مع المسلمين والروم، وكان الفريقان في موقف الدفاع أحياناً والهجوم أحياناً إلا أن الظفر كان في الغلب للمسلمين.

غزو الهند:

كان المسلمون يملكون إلى نهر مهران الفاصل بين السند والهند، فأراد المهدي أن يغزي جنوده بلاد الهند ففي (سنة ١٥٩) وجه عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات (١٥٠٠) ووجه معه قائداً من أبناء الشام في (٧٠٠) من أهل الشام وخرج معه من متطوعة أهل البصرة (١٠٠٠) رجل ومن الأسواريين والسبابحة (٤٠٠٠) فكان تمام عدتهم (٩٢٠٠) رجل مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند (سنة ١٦٠) فناهضوها بعد قدومهم بيوم وأقاموا عليها يومين، فنصبوا المنجنيق وباهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضاً حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجأوهم إلى بلدهم فأشعلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم بعد أن قتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس يقال له بحر حمران فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض ويظهر أن هذه الغزوة ليست إلا إغارة لا عملاً يقصد به توسيع المملكة.

صفات المهدي:

كان المهدي لا يشرب النبيذ وإن كان سماره يشربونه في مجلسه وكان يسمع الغناء وكان من

خلقه الحياء والعفو فكان إذا وقع أحد من خصومه في يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي، فقرأ مرة في صلاته: ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾[1] فأتم صلاته والتفت إلى الربيع وأمره بإحضار موسى، فلما جيء به قال له: يا موسى إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج علي فقال: نعم فوثق له فخلاه.

وكان خليفة عادلاً يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان إذا جلس للمظالم قال: ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى. قال المسور بن مساور: ظلمني وكيل المهدي وغصبني ضيعة لي فأتيت سلاماً صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضي فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له: ترضى بأحد هذين؟ فقال: نعم، فقال: تكلم فقال مساور أصلح اللّه القاضي إن ظلمني في ضيعتي وأشار إلى المهدي، فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين قال: ضيعتي في يدي فقال مساور: أصلح اللّه القاضي، سله متى صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها قال المهدي: بعد الخلافة، قال القاضي: أطلقها له، قال: قد فعلت. والعدل والحلم والعفو في الخلفاء من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان المهدي مع ما امتاز به من الجود وفصاحة اللسان، وكان أبوه قد علمه تعليماً عربياً محضاً في صغره، وقد ألف له المفضل الضبي أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم، وكان يقول: ما تقرب إليّ أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفت مني إليه أتبعها أختها فأحسن ربها، لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

وكان المهدي ميالاً إلى السنّة يحب ألا يخالف سنّة رسول اللّه ﷺ، فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصير منابرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول اللّه ﷺ وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به. وزار مرة مولاه أبا عون وهو مريض فقال له: أوصني بحاجتك فشكره أبو عون وقال: يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن عبد اللّه بن أبي عون وتدعو به، فقد طالت موجدتك عليه، فقال: يا أبا عون إنه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك إنه يقع في الشيخين أبي بكر وعمر ويسيء القول فيهما فقال أبو عون: هو واللّه يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم. ويظهر أن هذه الفكرة كانت موجودة حقيقة في مبدأ الدعوة العباسية ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر

(١) سورة: محمد، الآية: ٢٢.

الطالبين وثوراتهم المتتالية، فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلي رضي اللّه عنه على الدرجة التي كان عليها من التأخر في الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضي اللّه عنهم أجمعين.

ولاية العهد:

قدمنا أن المهدي نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن علي وجعل محله ابنه موسى الهادي ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد.

وفاة المهدي:

في (سنة ١٦٩) أراد المهدي الخروج إلى جرجان، فلما وصل إلى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم في قرية يقال لها الروذ وصلّى عليه ابنه هارون، لأنه كان في صحبته.

٤ ـ الهادي

هو موسى الهادي بن محمد المهدي بن جعفر المنصور، وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملكاً للمهدي. وفي (سنة ١٥٩) أعتقها وتزوجها أي بعد أن ولدت له الهادي والرشيد. ولد الهادي (سنة ١٤٤) وولاه أبوه العهد وسنّه (١٦ سنة)، وكان يوليه قيادة الجنود في المشرق فقادها في نواحي بجرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين. وفي اليوم الذي توفي فيه أبوه كان مقيماً بجرجان وكان مع المهدي ابنه هارون، فأخذ له البيعة على الجند وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك في (٢٢ محرم سنة ١٦٩ ـ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥)، ولم يزل خليفة حتى توفي في (١٣ ربيع سنة ١٧٠ ـ ١٣ سبتمبر سنة ٨٧٦) فكانت مدته سنة وشهراً و (٢٢ يوماً) وسنّه حين مات (٢٦ سنة).

وكان يعاصره في الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه.

الحال في عهده:

كان الهادي على سنن أبيه في كراهة الزنادقة، فالتفت إليهم ونكل بهم تنكيلاً والزندقة على ما يظن كانت عندهم عنواناً على ترك التدين والمجازفة في التعبير عن الدين. روى الطبري أن ممن قتل الهادي يزدان بن باذان الكاتب. ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون فقال: ما أشبههم إلا ببقرة تدوس في البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيا أمين اللّه في خلقه ... ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر ... يشبّه الكعبة بالبيدر